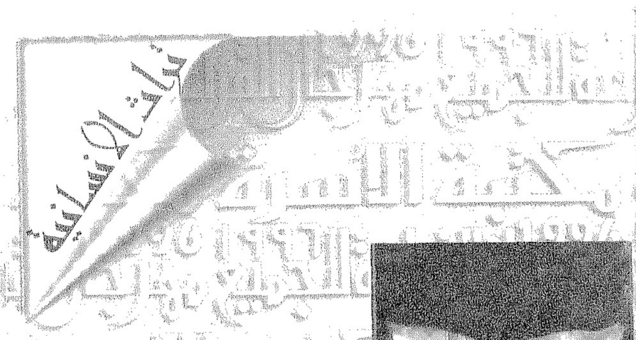
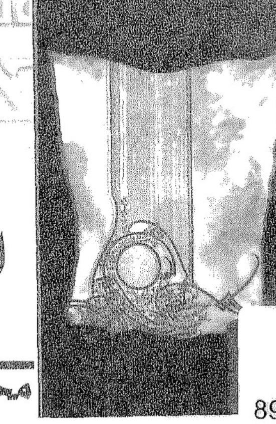
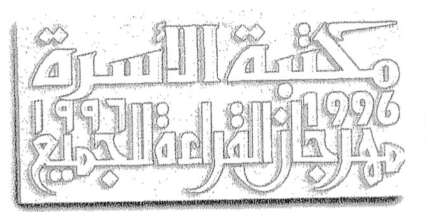




تاريخ آداب اللغة العربية

لجورجي زيدان

محمد عبد الغني حسني





الهيئة المصرية
العامة للكتاب



تاريخ آداب اللغة العربية



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف
الانجاز الطباعي والفني
محمود الهندي

المشرف العام
د. سمير سرحان

تاريخ آداب اللغة العربية

لجرجي زيدان

محمد عبدالغني حسن

علـــى ســـبيل التقديم ...

لان المعرفة اهم من الثروة واهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبـــة عصر المعلومات .. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصريـــة اطفالا وشبابا ورجالا ونسـاء ..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الاهمية لهذا المهرجان كاضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من اعمال فكرية وإبداعية وايضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة .

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما انتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية ..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من اهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحهـــا مكتبة الأسرة فى الأسواق باسعار رمزية اثبتت التجربة ان الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية وياخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم اصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة ..

د . ســمير سرحان

تاريخ آداب اللغة العربية

لجرجي زيدان

الأستاذ: محمد عبدالغني حسن

اولا : سيرة حياة

ان مصادرنا فى الترجمة لحياة جرجي زيدان ـ مؤرخ العرب والاسلام والحضارة الإسلامية والأدب العربي ـ كثيرة متنوعة ، فقد تناولته بالدراسة والترجمة بضعة كتب ظهر بعضها في العقد الأخير من القرن التاسع عشر في حياة الرجل ، كمثل كتاب « مرآة العصر » الذى أصدره الياس زخورة سنة ١٨٩٧ فى ثلاثة أجزاء ، فكان أقدم مصادرنا لسيرة هذا الرجل المتعدد جوانب الثقافة !! .

على أن هناك ترجمة مختصرة دقيقة له ملحقة بآخر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، أو على وجه الدقة ملحقة بذيل الجزء الرابع من هذا الكتاب ، الذى لم يكد الرجل ينتهى من تأليفه حتى فاجأته المنية فى شهر يوليو

سنة ١٩١٤ ، فرأى القائمون على اصدار الكتاب من أسرة دار الهلال أن يختموه (بخلاصة ترجمته وذكر مؤلفاته على ما يقتضيه موضوع الكتاب ...) .

وتكاد تدانى هذه الترجمة من ناحية الزمن ، تلك الترجمة الموجزة الدقيقة التى كتبهـا الدكتور يعقـوب صروف رئيس تحرير « المقتطف » بقلمه فى عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ من مجلة « المقتطف » فلم تزد على صفحتين ، ولكن جاء فى متنها وهامشهـا تصحيح مهم لما جاء فى الترجمة الملحقة بكتاب تاريخ آداب اللغة العربية خاصا باشتراك جرجى زيدان فى تحرير المقتطف ، فقد جـاء فى تلك الترجمـة أن ادارة المقتطف طلبت الى جـرجى زيدان سنة ١٨٨٦ « أن يتولى ادارة أشغالها ، والمساعدة فى تحريرها ، ففعل » . ولكن الدكتور يعقوب صروف فى ترجمته لجرجى زيدان أنكر أن يكون صاحبنا قد حرر فى « المقتطف » شيئا ، الا خاتمة السنة الحادية عشرة ، وهى نصف صفحة فقط ، كتبها جرجى زيدان لما كان مشتغلا بادارة المقتطف ! ومعنى هذا أن الثمانيـة عشر شهرا التى اشـتغل فيها جرجى زيدان بالمقتطف كانت (للأدارة) فقط ، ولم يجر فيها قلمه (بالتحرير) الا على نصف الصفحة التى أشار اليها الدكتور يعقوب صروف ..

وقد اضطر صروف ـ على أدبه وحيائه ـ الى تصحيح هذه الواقعة « إظهارا للحقيقة » كما قال فى تابينه وترجمته

لزميله وصديقه جرجى زيدان ... وعلى الرغم من هذا التصحيح المنشور في مجلة المقتطف سنة ١٩١٤ ظل كثيرون من مؤرخى سيرة جرجى زيدان ومترجمى حياته يقعون في الوهم ، ويذكرون أن جرجى زيدان قد شارك في تحرير المقتطف .. ومن هؤلاء الأب لويس شيخو اليسوعى الذى ذكر فى كتاب « الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين » أن مجلة المقتطف انتدبت جرجى زيدان « ليكتب فيها ، فنشر عدة مقالات مستجسنة » !! مع أن هذا الندب كان للادارة لا للتحرير . وقد جرى على هذا الوهم بغير تحقيق لفيف من أفاضل المحققين الذين نكن لهم كل تقدير ، كالأستاذ عمر رضا كحالة فى موسوعته الكبيرة العظيمة « معجم المؤلفين » ، والأستاذ طاهر الطناحى فى الفصل الجيد الذي كتبه فى كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » ، والأستاذ محمد رجب البيومى فى البحث الطيب الذى كتبه عن جرجى زيدان فى العدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة ، الصادر فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، والدكتور محمد يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » ، وهو ينقل عن الترجمة الملحقة بتاريخ آداب اللغة العربية نقلا حرفيا .

وهذه الحقيقة فى سيرة حياة جرجى زيدان قد آن لها اليوم أن تتضح بعد أن ظلت منزوية فى ركن من الإغفال والنسيان منذ قام بتصحيحها والتنبيه اليها الدكتور يعقوب صروف فى سنة ١٩١٤ .

ولو أن هذا التصحيح المهم قد جاء من رجل غير أستاذنا المغفور له الدكتور صروف ، الذي عرفنا الكثير من خلقه العظيم ، لقلنــا انه تصحيح ذو غرض ، ولكن الرجل كان صادقا في تصحيحه ـ كعهده في أمره كله ـ وما علمنا أن أحدا قام بالرد على الدكتور يعقوب صروف ليناقضه في هذه الحقيقة التي لا نعلم له مصلحة خاصة في تصحيحها .

وليست هذه هي الواقعة الوحيدة في حياة جرجي زيدان التي تحتاج الى تصحيح ، فهناك تاريخ وفاته الذي اضــطرب فيه بعض من ترجموا له . فقد ذكر « معجم المؤلفين » أنه توفي بالقاهرة في ٢١ أيلول « سبتمبر » سنة ١٩١٤ . وذكر شارحو ديوان الشاعر محمد حافظ ابراهيم المطبوع سنة ١٩٣٧ أنه توفي في شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، بل ذكرت مجلة المقتطف في عدد أغسطس سنة ١٩١٤ أن صــاحب الهلال توفاه الله بغتة في يوم الثلاثاء مساء في ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ .. و لانجد مفرا من أن نأخذ بقول أهل الفقيد أنفسهم ، فهم أدرى بتاريخ وفاة فقيدهم ، كما هم أعلم بكثير من أمره ، فقد جاء في الترجمة التي ظهرت في ذيل الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » أن مؤلف هذا الكتاب توفي في ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ .

على أن هذا الخلاف اليسير الهين في يوم وبعض يوم ، وشهر بعض شهر ، يذكرنا بما وقع فيه مترجمو

سيرة المفكر الثائر : أديب اسحاق ، فقد كادوا يجمعون على أن وفاته كانت سنة ١٨٨٥ ، الا واحداً فقط هو المستشرق الدكتور كرنيلوس فانديك ، الذى ذكر تاريخ الوفاة صحيحا فى سنة ١٨٨٤ ، حيث يؤكد هذا قرينة أخرى قوية ، وهى أن نعى أديب اسحاق فى المقتطف كان فى عدد يوليو سنة ١٨٨٤ فليس من المعقول أن تكون الوفاة قد وقعت فى سنة ١٨٨٥ (١) !!

هاتان حقيقتان لا بد من تصحيحهما والتنبيه اليهما فى معرض الحديث عن جرجى زيدان ، بمناسبة الحديث عن كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وما عدا ذلك من الحقائق والوقائع مما يتصل بسيرة هذا المؤرخ اللغوى الأديب الكبير فلا اعتراض لنا عليه .

واذا كانت بضعة من الكتب قد أمدتنا بمعلومات هامة عن سيرة جرجى زيدان ، كما أن عشرات من المقالات فى المجلات قد زودتنا بحصيلة من المعارف الضرورية للترجمة لحياة المؤرخ زيدان ، فأن هناك « مذكرات خاصة » للرجل قد رجع اليها ونقل عنها الأستاذ طاهر الطناحى ، وهو يترجم لصاحبنا فى كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » الذى أصدرته دار الهلال سنة

---

(١) كان لنا حظ السبق الى تصحيح تاريخ وفاة اديب اسحاق فى بحث لنا نشر بمجلة « المعرفة » التى تصدر بدمشق عدد شهر فبراير سنة ١٩٦٥ .

١٩٥٤ . ولا شك أن هذه المذكرات التى كتبها صاحبها فى جو من الصراحة التامة وعدم التحرج من ذكر الفقر وصعوبات الحياة - تلقى أضواء ساطعة قوية على حياة هذا الرجل الذى تعد سيرته درسا عظيما لكل من يريد النجاح فى الحياة .

وتدلنا مذكرات جرجى زيدان الخاصة ، على طراز من الرجال ندر أن تقع العين من مثله على كثير . فكثير من الناس - وخاصة من بلغوا شيئا فى الحياة - يتنكرون لماضيهم ، ويستحون أن يذكر هذا الماضى البئيس أمامهم أو يذكروه هم على أطراف ألسنتهم .. ويحاولون أن يطمسوه طمسا ، ويودون - بجدع الأنف - لو محى من تاريخهم ... ولكن العصامى جرجى زيدان كان غير هذا .. لقد كان أبوه صاحب مطعم متواضع فى بيروت ، وقد جمع الى الفقر الأمية فى العلم ، فلم يظفر بتعليم ... ولكن ذلك لا يمنع صاحبنا أن يقول فى مذكراته : « نشأت فى صباى وأنا أرى والدى يخرج الى دكانه فى الفجر ، ولا يعود الا فى نحو منتصف الليل أو قبيله ، وأرى والدتى لا تهدأ لحظة من الصباح الى المساء ... » .

واضطر الغلام جرجى زيدان - وهو فى الحادية عشرة - أن يجيب دعوة أبيه اياه لمساعدته فى المطعم ، ولو كاتبا للحسابات على الأقل ! ووجد الأب من ابنه عونا نافعا فحبسه فى المطعم وحجزه عن اتمام تعليمه الذى

كانت نفسه تتحرق اليه ٠٠٠ وخشيت الأم وخشى معها ابنها على مستقبله ٠ ويحدثنا جرجي زيدان في مذكراته الخاصة بعبارته السمحة الطيبة قائلا : « ولما مضى على اشتغالى في ذلك المطعم عام وبعض العام ، خافت والدتى أن يطول مقامي ويضيع مستقبلي ٠ وكانت تكره المطاعم ٠ وكانت منذ طلبني والدى لمساعدته تلح عليه أن لا يطول مقامي ، وهو يعدها ٠٠ فلما مضت السنة الأولى ألحت عليه أن يخرجنى ويعيدنى الى المدرسة ، فقال لها : انه قد أتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، الا اذا كنت تنوين أن تجعليه كاتبا أو معلما ، فضلا عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجا متأنقا ، لا يأكل الا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الأفرنجي ٠٠٠ !! » ٠

على أن هذا المطعم كان نعمة كبرى على الغلام جرجي زيدان فيما بعد ٠٠٠ فقد كان ـ بمن يحويهم من نخبة الطاعمين ـ مثارا لطموح الفتى واتساع اهتماماته ٠ ففيه التقى باليازجى ، وعبد الله البستانى اللغوى وغيرهما ، واستمع الى أحاديثهم ومناقشاتهم ، وفيه التقى بطلبة الطب في الكلية الأميركية التى أنشأتها الارسالية الأميريكية في بيروت سنة ١٨٦٦ ٠ ولا شك أن هؤلاء الطلبة قد أثاروا حماسته لطلب العلم ٠ ولا شك أنهم هم الذين دلوه على طريق الدخول فى مدرسة الطب هناك ٠ فدرس العلوم الاعدادية التى تؤهله للالتحاق بقسم الطب فى الكلية سنة

١٨٨١ . ولم تزد مدة دراسته الاعدادية هذه على شهرين ونصف شهر . وتصور لنا هذه المدة القصيرة روح العزيمة والجد التى تجلت فى الفتى منذ أول أمره . والى هذه الروح يشير خليل مطران فى رثائه له بقوله :

الا فى سـبيل الله حكمتك التى
جلاها « هلال » مالىء الكون مقمر

وجد به رضت الصعاب ، فما كبا
الى أن دهـــاه جـــدك المتعـثر

ولقد كان لهذا المطعم أثر آخر فى اهتمامات جرجى زيدان التى تجلت بعد هذا فى اطلاعاته الواسعة على حفنة من اللغـــات الأجنبية . فقد التقى فيــه بأحــد الحرفاء « الزبائن » المترددين عليه للطعام ، ـ وهو المعلم مسعود الطويل ـ الذى كان يشتغل بتعليم الشبان اللغة الانجليزية فى مدرسة خاصة فتحها لهذا الغرض ، ولم يتوان جرجى زيدان عن الانضمام الى هذه المدرسة المسائية ، وما هى الا خمسة أشهر حتى كان صاحبنا يقرأ « رحلة كوك » بالانجليزية فى سهولة ويسر .

وكان كتاب رحلة كوك أول كتـــاب يقرؤه الفتى بالانجليزية ، الا أن كتبــا عربيــة كثيرة قد سبقت الى يديه ، وحصل عليها بماله الذى كان يقتطعه من مصروفه . والغرام بشراء الكتب واقتنائها ـ مهما كانت أثمانها ـ ظاهرة تلفت النظر فى حياة زيدان . ويروى لنا هو نفسه

في مذكراته الخاصة كيف افتتنى لأول مرة فى حياته كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجى ، فيقول :
(كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين ، وأحب اقتناءه • لكني كنت أستغليه ، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة • ففى ذات يوم كنت جالسا بالمطعم ، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملا ، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته منه بتسعة قروش بيروتية ، أى أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيرا • ولما رجع والدى سألنى عنه ، فأخبرته أنى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « أتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدراهم بورق ؟ » • فزعلت ، ولم أجبه • ولما انصرفنا للبيت فى فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشـــاء ،أظهرت أنى لا أريد الطعـــام ، وذهبت للنوم ، وأنا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى أنام جائعا • وسمعت والدتى تعنف والدى لاغضـــابى حتى نمت بلا أكل ، ولكنه أصر على رأيه ••• واتفق أن جاء أمين فياض ــ أحد أصدقاء والدى ــ للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد الى ، فسأل عني ، فقيل له انى نمت • واغتنمت والدتى هذه الفرصة ، وشكت اليه عناد والدى • فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « انه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة ! » فأجابه : « أشـــكر الله يا أبا جرجى أن ابنـك ينفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه • انها نعمة يجب أن تشكر الله عليها » وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا

أتظاهر بالنوم وللحال اشتد ساعد والدتى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى الى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وكذلك والدى ... ولا تزال هذه الحادثة نصب عينى ...) .

لقد كان الحافز الى التعلم عند جرجى زيدان شخصيا وطبيعيا ، ولكن ظروفا مواتية أعانت على تقوية هذا الحافز ودفعه الى الأمام ، على الرغم من عدم مواتاة الظروف المادية التى كانت تعيش فيها أسرته . ولم يبال الفتى بهذه الظروف المعاكسة وحاول دائما أن يتغلب عليها . وعلى أبواب السنة العشرين من عمره ، وفى سنة ١٨٨٠ ، كانت قد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « سر النجاح » لصمويل سميلز الذى ترجمه الدكتور يعقوب صروف وأصدرته مطبعة المقتطف ، وفى هذا الكتاب صور لنماذج بشرية نجحت فى الحياة ، وتغلبت على ما فيها من عقبات ، استنادا الى العزيمة والدأب ، والجد والكفاح ، وعدم تسرب الملل واليأس الى النفس . واقتنى الفتى نسخة من هذا الكتاب ، ورأى بعد قراءته أن المطالب العالية فى الحياة لا يقف دونها ما قد يتوهمه الناس حوائل وموانع . وكانت قراءته لهذا الكتاب مما دفعه دفعا الى الالتحاق بقسم الطب بالكلية الأمريكية .

ودخل جرجى زيدان مدرسة الطب ببيروت سنة ١٨٨١ ، وكان من أحسن طلابها استماعا للأساتذة ، واقبالا على العلم ، وعكوفا على الدرس ، على الرغم من انشغاله فى الوقت نفسه بأمور معاشه . وتشير المصادر

الى أنه اضطر الى ترك كلية الطب فى العام الثانى بسبب « الاختلال المشهور الذى حصل فى تلك المدرسة » (١) ويشير مصدر آخر حديث الى أنه فى سنة ١٨٨١ وقعت فى الكلية حادثة « الحرية الفكرية » ، ويشير الأب لويس شيخو — نقلا عن مجلة الهلال — الى ما حدث فى المدرســة من المنازعات التى كان لزيدان فيها نصيب وافر ، ثم ما حصل بين المعلمين من الانقســام بسبب التعليم بالانجليزية بدلا من العربية ٠

وقد استطعت بعد طول تنقير وتنقيب أن أجد فى السنة السابعة من مجلة المقتطف تفصيلا — بقلم الدكتور يعقوب صروف نفســه — لحادث المدرســة الكلية الطبية ببيروت ، وما لابســه من اســتقالة ثــلاثة من المشتغلين بالتدريس فيهـــا ، وهم الدكتور كرنيـــلوس فانديك المستشرق المشهور ، وأستاذ الباثولوجيا بها ، والدكتور أدون لويس أستاذ الطبيعيات والكيمياء ، والدكتور وليم فانديك نجل العلامة كرنيـــلوس ومدرس المادة الطبية والحيوان بالكلية ٠

واتجه جرجى زيدان بعد ذلك الى دراسة الصيدلة بدلا من الطب مع لفيف من رفاقه المبعدين من الكلية ،

---

(١) الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين — للأب لويس شيخو ، ص ٧٩ ٠

وامتحنته لجنة خاصة محايدة من علماء سورية وأطبائها ، منهم الكولونيل مراد بك حكيمباشى العسكر ، والدكتور فانديك ، والدكتور لويس ، فنال شهادة الصيدلة بالنجاح فى العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيات ، والحيوان ، والنبات ، والجيولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليل الكيمى ، والمواد الطبيعية ، والأقرباذين العلمى والعملى ٠

وجاء الى مصر بعد ذلك ، ورغب أن يدخل مدرسة الطب المصرية ، ولكن طول الدراسة فيها صرفه عنها ، فاشتغل بالعلم ، والصحافة محررا فى جريدة « الزمان » ٠ ورافق الحملة النيلية الى السودان سنة ١٨٨٤ مترجما ٠ وقد أكسبته هذه الرحلة كثيرا من التجارب الجديدة عليه ٠

وفى سنة ١٨٨٥ عاد الى بيروت من مصر ، وكانت قد سبقته اليها شهرته العلمية واللغوية التى كسبها بقراءاته الواسعة ، فانتخب عضوا بالمجمع العلمى الشرقى ٠ وهناك تعلم العبرانية والسريانية وأتقنهما وأضاف اليهما بعض اللغات السامية والشرقية الأخرى ٠

وفى سنة ١٨٨٦ زار انجلتره وجال جولة مفيدة فى متاحفها ومكتباتها الشهيرة ٠ وفى شتاء العام نفسه عاد الى مصر حيث طلب اليه أصحاب مجلة المقتطف أن يتولى « ادارته » لا « تحريره » كما سلف القول ، فنهض بالعبء على خير وجوهه ٠ ولكنه آثر أن يستقل بالعمل وحده ،

فاستقال من ادارة المقتطف سنة ١٨٨٨ حيث تفرغ للكتابة والتاليف ، وفى هــذه الفترة أتم تاليف كتابه « تاريخ مصر الحديث » ٠

ولم يكن « تاريخ مصر الحديث » أول الكتب التى الفها جرجى زيدان ، فقد سبقه بضعة من الكتب ، ولعل أول كتاب ألفه هو « الفلسفة اللغوية » الذى ظهر سنة ١٨٨٥ والذى قدمه الى الهيئات والمجامع العلمية الدولية ، فظفر بعضوية « المجمع الآسيوى الملكى » فى ايطاليــا ٠ وتستطيع أن تحكم على العبقرية المبكرة لهذا العالم البحاثة اذا عرفت أنه أتم تاليف « الفلسفة اللغوية » ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين ٠٠٠

أما أولى روايات جــرجى زيدان التاريخيــة ، فهى رواية « المملوك الشارد » التى أتمها حوالى سنة ١٨٩٠ ، والتى تصور عصر محمد على أدق تصوير ٠

واذا كان كتاب « الفلسفة اللغوية » هو أول كتاب علمى لغوى ألفه جرجى زيدان ، فان كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » هو آخر كتاب علمى أدبى صنفه ، فما كاد ينتهى من الجزء الرابع فى صيف سنة ١٩١٤ حتى أدركته منيته فى شهر يوليو من العام نفسه ، على ان أول جزء من هذا الكتاب ــ الذى هو موضوع بحثنا اليوم ــ قد صدر فى صيف سنة ١٩١١ ، فكأنه قضى فى تأليف هذا الكتاب ثلاث سنوات ، وان كان قد نشر طائفة من فصوله

فى مجلة « الهلال » سنة ١٨٩٤ أى بعد صدورها بعامين اثنين ·

ولقد دخل جرجى زيدان ميدان الصحافة الأدبية بأنشائه مجلة الهلال الشهرية سنة ١٨٩٢ (١) · وفى أول سبتمبر من ذلك العام صدر أول أعداد الهلال يحمل فيما يحمله من مقالات وبحوث ودراسات ، مقدمة لمنشئه ، يكشف فيها عن خطته وأهدافه من اصدارها قائلا : « لا بد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمى اليها · أما فاتحتنا فحمد الله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه · والتوسل اليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب ، وأما خطتنا فالاخلاص فىّ غايتنا ، والصدق فى لهجتنا ، والاجتهاد فى وفاء حق خدمتنا · ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر فى كل صقع ومصر ، أما الغاية التى نرجو الوصول اليها ، فاقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نحتسبه ، واغضاؤهم عما نرتكبه · فاذا تيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ، فتنشط لما هو أقرب الى الواجب علينا ·· » ·

وعلى الرغم من دخول « الهلال » ميدان الصحافة الأدبية منافسة « للمقتطف » التى أنشئت قبلها ببضعة

---

(١) ذكر الاب لويس شيخو أن الهلال صدر فى تشرين الأول (اكتوبر ١٨٩١) ، وهو وهم ·

عشر عاما (٢) ، فقد استقبلت الرصيفة القديمة زميلتها الجديدة استقبالا كريما فى باب « الهدايا والتقاريظ » من عدد سبتمبر سنة ١٨٩٢ ص ٨٤٤ ، معرفة بها وبأبوابها ، مثنية على « منشئها الكاتب الفاضل جرجى أفندى زيدان » ، موجزة الحديث عن انسجام عبارتها وجمعها لأشتات الفوائد ، متمنية لها أتم النجاح ٠

وقد ظل اسم « الهلال » وجرجى زيدان متلازمين حتى بعد وفاة صاحب الهلال سنة ١٩١٤ ٠ وما أغفل شاعر أو كاتب أو خطيب هذا التلازم فى حفل التأبين الذى أقيم لجرجى زيدان فى نادى الاتحاد السورى فى ٢٨ مايو سنة ١٩١٥ ، أى بعد عشرة أشهر من وفاته ٠ فنجد الشاعر أحمد شوقى يقول :

قد أكمل الله ذياك « الهلال » لنا
فلا رأى الدهر نقصا بعد اكمال

ولا يزل فى نفوس القارئين له
كرامة الصحف الأولى على التالى

فيه الروائع من علم ومن أدب
ومن وقائع أيام وأحوال

---

(٢) صدرت المقتطف أولا فى بيروت سنة ١٨٧٦ عن الدكتورين يعقوب صروف وفارس نمر ، ثم انتقلت الى مصر بعد ذلك بخمس سنوات حيث ظلت توالى اصدارها الى سنة ١٩٥٢ ٠

وفيه همة نفس زانها خلق
هما لباغي المعالى خير منوال

ونجد الشاعر حافظ ابراهيم يقول عن زيدان صاحب « الهلال » ، واليازجي صاحب « الضياء » :

وكم فزت من رب « الهلال » بحكمة
وكم زنت من رب « الضياء بيانى »

ثانيا : آثاره ومؤلفاته

لقد كان جرجى زيدان متعدد النواحى الثقافية ، فلم يقف بالمعرفة عند حد ، وقد هيأته ثقافته الطبية والصيدلية والطبيعية الأولى لكى يكون مؤرخا وأديبا ولغويا علمي المنهج ، فهو مؤرخ أدب لم تجنح به عاطفة ولم يمل به خيال فى الأحكام ، وانما هو صاحب عقلية علمية منهجية تجريبية ، وقد ظهرت هذه العقلية فى أكثر ما كتبه وألفه من كتب ، فحين أخرج لنا كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، مبتدئا من تاريخ الفراعنة حتى العصر الحديث ، لم يكتب بالانكباب على الكتب يقرؤها ويستخرج منها مادة كتابه التى نسقها تنسيقا بديعا ، ولكننا رأيناه يتجه الى « المعاينة » و « المشاهدة » و « التجربة » ، كما كان يفعل الجاحظ ، وكما أوصى مؤرخنا « ابن خلدون » أن يفعل المؤرخون حين يؤرخون ، فنرى جرجى زيدان يحصل على ترخيص من وزارة الأوقاف بتفقد الآثار

العربية ، ثم يجشم نفسه عناء الرحلة والنقلة الى الآثار التي تحدث عنها في كتابه ، حتى يكون كلامه كلام الخبير المجرب ، ثم هو لا يبالى أن يرحل في سبيل « المعاينة التاريخية » الى ما وراء « حلفا » آخر الحدود المصرية ، ويقول في مقدمته لكتاب « تاريخ مصر الحديث » : « فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، ولا سيما ما كان منها قديما ، كجامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر ، وجامع السلطان حسن ، وجامع السلطان برقوق ، وجامع قايت باى ، وجامع الغورى وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها ، وتسلقت ما صعب مسلكه منها ، ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها ، كباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الأماكن ما قد تداعت أركانه وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة . فكثيرا ما كنت اخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار التي تفقدتها ، ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع ، قصر الشمع أو دير النصارى في مصر القديمة ، ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين ، وغير هذه من الأماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها .

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضا . ولا سيما ما هو منها في مصر العليا ، مبتدئا من أهرام الجيزة بجوار القاهرة ، الى ما وراء وادى حلفا آخر حدود مصر ، فزرت خرائب سقارة ، وأسنا ، وطيبة ، والكرنك ،

وبيبــــان الملوك ، وجبل السلسلة ، وأنس الوجــود ، وأبا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئا بالمطرية ، فأتريب فغيرها . وفى مصر العليا فضـــلا عن الآثار المصرية القديمة وآثار استحكامات وبنايات بناهـا المماليك أو غيرهم فى حال محاربتهم حـــكومة البلاد أو دفاعهم عنها . كل هذه الأماكن تفقدتها جيدا اتماما لمعدات التأليف .. » .

ومن هنا يتضح لك منهج جرجى زيدان فى تأليفه ، فهو ليس جماع مادة ، ولا حاشد معارف ، بقدر ما هو محقق لها ومعاين لها بالنظر ، ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وتمتاز كتابات جرجى زيدان ـ وخاصة العلمية ـ بحسن عرضها ، وتنسيقها ، وتنظيم الأفكار فيها . ولعله تأثر فى هذا بكتابات المستشرقين ودراساتهم ، فهو ينحو نحوهم من طول ما عاناه من مطالعة كتبهم وبحوثهم ، وقد وفق الله جرجى زيدان الى أن يضع معلوماته الغزيرة ودراساته الجادة فى أسلوب علمى واضح مشرق العبارة ، فى غير تعمل ولا تصنع ولا تعقيد ولا غموض . فهو يؤدى اليــك المعــانى المرادة فى بلاغ حسن بعيد عن الزخرفة والوشى . وينزل الألفاظ منازلها على أقدار موضعها من الكلام ، وفى ترسل سهل يسير لا مماطلة فيه ولا تكلف . وقد أحسن المغفور له أنطون الجميل نعت أسلوب جرجى زيدان بقوله : « من الكتـــاب من هم كالسيل الجارف

المروع ، يتدفق مرغيا مزبدا ، فيثب وثبـــات عظيمة ، وينحدر شلالات فخمة ، يقف عندها المرء متهيبا • ومنهم من يشبه ذلك الجدول المترقرق على الحصباء ، العاكس فى قاعه الصـــافى زرقة الماء ، يناغيه على ضفتيه الزهر الندى ، ويطرب الأسماع بخريره الشجى • وليس زيدان ذلك السيل الجارف ، ولا هذا الجدول المترقرق ، بل هو يشبه النهر الهادىء ، كنهر النيل مثلا فى واديه ، يسير بكل سكون ووقار ، فيحمل فى طياته الحياة والثروة ، فيحول الجدب خصبا ، والتراب تبرا ••• » ومن هنا وجدت مؤلفات جرجى زيدان وكتاباته ، وحتى رواياته ، سبيلها الى نفوس القراء فى كل أرض عربية أو تعرف العربية •

ونستطيع أن نقسم مؤلفات جرجى زيدان الى مؤلفات تاريخية ، ومؤلفات فى اللغة ، ومؤلفات فى تاريخ الأدب ، ومؤلفات فى الاجتماع ، وروايات • أما مؤلفاته التاريخية فهى :

١ ـ تاريخ مصر الحديث •
٢ ـ تاريخ التمدن الاسلامى •
٣ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام •
٤ ـ تاريخ الماسونية العام •
٥ ـ تراجم مشاهير الشرق •
٦ ـ التاريخ العـــام •

٧ ـ تاريخ انكلترا .

٨ ـ تاريخ اليونان والرومان .

٩ ـ أنساب العرب القدماء .

أما مؤلفاته فى اللغة فهى :

١ ـ الفلسفة اللغوية .

٢ ـ تاريخ اللغة العربية .

أما مؤلفاته فى الاجتماع فهى :

١ ـ علم الفراسة الحديث .

٢ ـ طبقات الأمم .

٣ ـ عجائب الخلق .

وليس له فى تاريخ الأدب الا كتابه الخالد :

« تاريخ آداب اللغة العربية » فى أجزائه الأربعة .

أما رواياته فيبلغ عددها اثنتين وعشرين رواية تدور مع تاريخ العرب من الجاهلية ، ومع تاريخ الاسلام منذ الفتوح إلى العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن جرجى زيدان قد أفاد فى بحوثه ودراساته من كتب المستشرقين والأجانب ، فان كثيرا من كتبه ورواياته قد ترجم الى لغات أجنبية وشرقية . ولا يقولن قائل ان بضاعة المستشرقين قد ردت اليهم بهذه الترجمات ! فان كتب جرجى زيدان مملوءة بمعارف ومعلومات من استنباطات الرجل واجتهاداته الكثيرة الموفقة

التى لقى فيهـا المستشرقون وغير العرب أشـياء جديدة عليهم • ويكفى أن نذكر هنا رأى العالم المصنف الدكتور يعقوب صروف فى مؤلفات جرجى زيدان على جملتهـا :
« ••• واستخلص من ذلك كتبا ممتعة فى آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة فى التبويب والتنسيق ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقا وغربا ، وترجم بعضها الى كثير من اللغـات الشرقية والغربية • وبحث فى تواريخ دول الاسلام • وألف فيها كتابا جليلا ، وبنى على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية ، جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارىء ••• » (١) •

ثالثا : كتاب تاريخ آداب اللغة العربية

تمتاز كتب جرجى زيدان فى التاريخ والأدب واللغة والسير والتراجم بأصالتها ، وبأنها أثرت المكتبة العربية ، وبأنهـا فتحت فى البحث العلمى ميادين جديدة لم يكن للناس فى عهده بها عهد ••• ويكفى لبيان حيوية هذه الكتب أنهـا شغلت العلماء والباحثين والناقدين بنقدهـا ومناقشاتها • والكتاب الجيد هو الذى يثير من القضايا ما لا يدع للناس سبيلا الى السكوت عنه • وقد كان جرجى زيدان من العلمـاء الذين يرحبون بالنقد ولا تضـيق صدورهم به • وكثيرا ما رأيناه يستحث العلماء على نقد

(١) مجلة المقتطف ــ عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ ــ ص ٢٨٤ •

فى عصره ـ ولا يزالون يفعلون ـ ابقاءا على الود وايثارا للعافية ... ومما يؤكد هذه الحقيقة أنه لما أصدر روايته « المملوك الشارد » فى سنة ١٨٩٢ أهدى نسخة منها الى صديقه الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف رجاء الكتابة عنها . وندع الدكتور صروف يكمل بقية الحديث قائلا : « تلقينا بالأمس نسخة من رواية المملوك الشارد التى وضعها جناب صديقنا الأديب جرجى أفندى زيدان ، فاعتذرنا عن انتقادها وأردنا أن نقرظها بذكر موضـوعها واظهار محاسنها ، والاغضاء عما نظنه عيبا فيها ، فأبى الا أن ننتقدها انتقادا ، فأجبنا الطلب وقرأنا الرواية على ما نحن فيه من كثرة الأشغال ، وضيق الوقت ، وعلقنا عليها السطور التالية ... » (١) .

ولما ظهر كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » سنة ١٩١١ صبر النقاد عليه حتى ظهر جزؤه الثانى بعد الأول فاستقبلوه بالنقد والتعليق والمناقشة ـ مما سنعرض له بعد قليل ـ ولكن مؤرخنا العظيم لم يجزع للنقد ، ولم يهتز له ، بل انتضى قلمـه الهـادىء الرزين يرد الحجة بالحجة ويقرع البرهان بالبرهان فى أدب جم وعلم غزير ، وصبر جميل ، حتى لم تبد من بين شفتيه لفظة نابية ... أو كلمة جارحة .

---

(١) مجلة المقتطف ـ السنة السادسة عشرة ـ سنة ١٨٩٢ ـ ص ٣٤٧ .

والحق أن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان يعد رائدا فى التأليف فى تاريخ الأدب العربى على نهج لم يسبق اليه ؛ ومن هنا كان الاهتمام بهذا الكتاب ، لمكانه من الريادة فى هذا الميدان ٠

والحق ـ أيضا ـ أن جهدا كريما فى هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفى فى كتابه « الوسيلة الأدبية » الذى تحدثنا عنه في العدد السادس من المجلد الرابع من « تراث الانسانية » ، فقد خطا المرصفى خطوة ـ على صغرها ـ فى ميدان التأريخ الأدبي على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء ٠ وهذه حقيقة لا ينبغى أن يفوتنا التنويه بها في مقام التحقيق ٠

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفى تلميذه في دار العلوم المرحوم حسن توفيق العدل الذى تخرج فيها سنة ١٨٨٧ ، أى قبل وفاة أستاذه المرصفى سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات ٠ فتنبه الى ما فى تاريخ الأدب حسب العصور من مزية ٠ وأكد هذا المعنى في نفسه ما أتيح له من بعثة فى ألمانيا واتصال بالمستشرقين هناك ، وخاصة « بروكلمان » الذى كان قد وضع كتابه فى تاريخ الأدب العربى على طريقة العصور ، وان كان لم يظهر مطبوعا الا فى سنة ١٨٩٨ ٠ وأعجب المرحوم حسن توفيق العدل بهذه الطريقة ، فلما عاد من ألمانيا ليشتغل بالتدريس فى دار العلوم قدم هذه الطريقة الى طلبته فيها على هيئة مذكرات

عنوانها « تاريخ آداب اللغة العربية » . ويذكر المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أنها طبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصنايع الخديوية (١) .

وجاء المرحوم محمد بك دياب ــ وهو من رجال دار العلوم أيضا ــ فأصدر فى التأريخ الأدبى على وفق العصور كتابه الموسوم : « تاريخ آداب اللغة العربية » الذى ظهر فى جزءين سنة ١٨٩٩ ــ ١٩٠٠ م . وانتهى القرن التاسع عشر بهذه الكتب الثلاثة فى تاريخ الأدب العربى على حسب العصور ، ألفها ثلاثة من أساتذة دار العلوم أو أبنائها .

وجاء القرن العشرون فاذا بالأستاذ محمد حسن نائل المرصفى (٢) يصدر فى سنة ١٩٠٨ كتابه : « أدب اللغة العربية » مرتبا ترتيبا زمنيا كذلك . وفى سنة ١٩٠٩ يظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية » لجماعة من أبناء العلوم هم محمد عاطف ، ومحمد نصار ، وعبد الجواد عبد المتعال . ولا يطول بنا الزمن بعد هذا أكثر من عامين

---

(١) مجلة الكتاب ــ عدد يوليو سنة ١٩٤٧ ــ ص ١٢٨٠ .

(٢) كان الشيخ محمد حسن نائل المرصفى من نوابغ الادباء فى وقته ، وهو أزهرى ، ولم يتعلم فى دار العلوم كما ذكر ذلك الخطأ خير الدين الزركلى فى « الاعلام » ونقل الخطأ عنه عمر رضا كحالة فى « معجم المؤلفين » . ومن آثاره فى الصحافة الأدبية مجلة « الجديد » التى كانت تحفة رائعة . توفى سنة ١٩٣٥ .

اثنين حتى نرى مؤرخنا جرجي زيدان يصدر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » على نحو واسع مبسط مفصل لم يألفه الناس فيما صدر قبله من كتب فى تاريخ الادب العربى . ويظهر الجزء الأول من هذا الكتاب فى سـنة ١٩١١ بهذا الاسم الجديد لهذا العلم الذى هو من مبتكرات جرجى زيدان . وقد سبق جرجي زيدان المرحومين حسن توفيق العدل ومحمد دياب ومحمد حسن نائل المرصفي ، ومحمد عاطف وزملاءه الى تسمية هذا العلم بعلم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فانه فى سنة ١٨٩٤ وفى السنة الثانيـة من مجلة « الهلال » كان قد نشر فصـولا تحت عنوان : تاريخ آداب اللغة العربية ، فكان بذلك أول واضع لاسم هذا العلم ، وعنه أخذ الأسـاتذة السـابق ذكرهم عناوين كتبهم التى سبقوا بها فى الصدور والظهور منذ سنة ١٨٩٩ ، وان كان كتاب جرجى زيدان لم يظهر ـ على شكل كتاب ـ الا فى سنة ١٩١١ .

وقد يكون جرجى زيدان على حق حين يقول عن نفسه انه أول من كتب فى « تاريخ الأدب العربى على هذا النحو ، وانه أول من سمى هذا العلم باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فان الفصول التى بدأ بنشرها فى مجلة الهلال منذ سنة ١٨٩٤ تحت هذا العنوان الجديد ، هى أقوى مؤيد لدعواه ، على أن جهود هؤلاء الرواد الذين ذكرناهم فى هذا السبيل لا يجوز اغفالها أو التقليل من قدرها .

وقد استقبل الدكتور يعقوب صروف الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » بكلمة فى مقتطف أغسطس سنة ١٩١١ تكاد تكون تقريظا للكتاب وعرضا موجزا له ، قدمها بهذه الأسطر : « لصديقنا جرجى أفندى زيدان - صاحب الهلال - فضلا لا ينكر على أبناء العربية ، بما ألفه فيها ، وآخر ما أتحفنا به الجزء الأول من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يبحث فى تاريخ آداب هذه اللغة فى عصر الجاهلية وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى » .

واكتفى الدكتور صروف فى كلمته عن الجزء الأول بالتقريظ والعرض ، فلما ظهر نقد الجزءين الأول والثانى لحفنة من أفاضل العلماء ، لم يجد « صروف » بدا - حين حديثه عن الجزء الثالث فى عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ - من أن يدخل ميدان النقد بكلمة وجيزة يقول فيها : « ولا شبهة فى أن كثيرا من منقولاته وأحكامه يفتقر الى التحقيق والتمحيص ، ولكن ذلك يكون بعد هذا الجمع والتبويب .. » ويلاحظ ما فى هذه الكلمة من كياسة ولباقة ، فقد رضى الناقد هنا بمرحلة الجمع والترتيب - على ما فيها من مآخذ واخطاء ، على أن يأتى التحقيق بعد ذلك فى مرحلة تالية ... ! والحق أن كلمة الدكتور صروف هنا كانت دفاعا عن صديق من صديق ، فى معركة سل عليه النقاد فيها سيوف نقدهم !

وتتجلى الروح العربية الخالصة فى مؤلفات زيدان عامة ، وفى « تاريخ آداب اللغة العربية » خاصة ، فهو يدافع عن العرب فى كل موقف ، ويغلى فى تقديرهم الى درجة كبيرة ، ويضعهم من حيث الثقافة والعقلية فى مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كاليونان والرومان ، وينفى عنهم ما قد توهمه البداوة جهالة وتخلفا • فيقول مثلا فى موضع الحديث عن درجة ارتقاء عقولهم : « وقد يتبادر الى الأذهان أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية ، لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب ••• ولكن يظهر مما وصل الينا من اخبارهم أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة • وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ، وهى تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الانسان ، مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة » (١) ويذهب فى تقدير حكمتهم درجة أخرى أكثر إغلاء فى المرمى ، فيعد حكم زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة مما « لا يقل شيئا عن أحكام أكابر الفلاسفة ••• » (٢) •

ثم يمضى جرجى زيدان فى اعظام تقديره للعلوم عند عرب الجاهلية فيقرر « أن العرب عرفوا كثيرا من الأمراض

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الاول ـ طبعة سنة ١٩٥٧ ـ ص ٢٤ •

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥ •

ومعالجتها ، وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه من أحوال الأعضاء وأوصافها ، وهو من قبيل علم التشريح ، وهم يعبرون عنه بخلق الانسان • وقد ألف أدباء المسلمين كتبا كثيرة فى هذا الموضوع نقلا عن العرب ، سيأتى ذكرها بين مؤلفا تأهل اللغة • والمتأمل فيما حوته من اسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك الجاهلين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء •• » (١) •

وقد بلغ من غلو جرجى زيدان فى هذا التقدير أن الدكتور شوقى ضيف ـ الذى عهد اليه تحقيق الطبعة الأخيرة من « تاريخ آداب اللغة العربية » والتعليق عليها ، والاضافة اليها ـ وجد نفسه مضطرا الى أن يعلق على هذا الغلو قائلا : « ينبغى ألا نبـــالغ فى معرفة عرب الجاهلية بالطب ، فان ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز ملاحظات أولية بسيطة » (٢) !!

ولم يخل جرجى زيدان بين العرب ومعرفتهم لعلم تاريخ آداب اللغة العربيـــة وسبقهم اليه ، كسبقهم فى موضوعات أخرى • ويقرر ـ فى هذا الشأن ـ أن كتب التراجم التى ألفها العرب فيها كثير من علم تاريخ الأدب ، لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم له من الكتب ، ويبينون موضـــوعات هذه الكتب ، وقد يجاوزون هذا

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨ •

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ بالهامش •

التبيين الى وصفها (١) • وعد من هذه الكتب المتخصصة فى البحث عن المؤلفين ومؤلفاتهم كتاب « الفهرست » لابن النديم ، و « مفتاح السعادة » لطاشكبرى زاده ، و « كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون » لحاجى خليفة ، و « أبجد العلوم » لصديق حسن خان القنوجى الهندى من علماء المسلمين فى القرن التاسع عشر •

وعاد جرجى زيدان بعد قليل ليصحح الرأى فى هذا الموضوع الذى أثاره فقال ان هذه الكتب وأمثالها تعد من المآخذ الأساسية لدرس آداب اللغة ، ولكنها لا تصح أن تسمى تاريخا لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم (٢) •

وتتجلى القيمة الحقيقية لكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان فى مزايا كثيرة تنكشف بادنى نظرة عند القارىء المحقق المتفطن لقيمة ما يقرؤه ، وأول هذه المزايا ما هدف اليه جرجى زيدان من « بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية ، من حيث الرقى الاجتماعى والعقلى » • ولم يتخل هذا الهدف عن عينى « زيدان » لحظة واحدة فى خلال الألف وخمسمائة صفحة التى يحتويها هذا الكتاب الضخم •

على أن جرجى زيدان لم يكتف ـ فى معرض اثباته

---

(١) مقدمة جرجى زيدان لكتاب تأريخ آداب اللغة العربية ـ ص ٩ •

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ •

لحقيقة العقلية العربية الخصبة ـ بتقريرها فقط ، ولكنه يثبت بالوقائـــع والأدلة ما تقلبت عليـه عقول العرب وقرائحهم ، وما كان لهم من أثر في العصـــور المتعاقبة عليهم ، وما كان لتلك العصور وأحداثها من أثر فى تاريخ تطورهم العقلى والحضارى •

ولا يكتفى صاحبنا بالوقوف عند هذا الحد أو بلوغ هذا المبلغ ، ولكنه يقف عند كل علم من علوم العرب وقفة طويلة مستأنية ، يتابع فيها نشأته وتطوره ، ويراقب ـ مراقبة دقيقة واعية ـ نموه ونضجه وتشعبه وانحلاله أو ازدهاره • لعل ذلك فى الشعر الجاهلى ، وفى العلوم الطبيعية والرياضية فى العصر الجاهلى ، وفى الخطابة فى الجاهلية وصدر الاسلام • وفعل مثل ذلك وأكثر منه فى العصر الأموى والعباسى والمغولى والعثمانى والعصر الحديث الذى يبدأ منذ بداية القرن التاسع عشر • ففى النحو ـ مثلا ـ نراه يتحدث عن نشأته ، وأول من علله ، وأول من ضبط قواعده وألف فيه ، ومذهب البصريين والكوفيين • وكل هذا فى معرض الحديث عن النحو فى العصر العباسى الأول • فاذا بلغ العصر العباسى الثانى عالج موضـــوع النحو والنحاة فيه معالجة ملائمة ، فاذا بلغ ـ بعد عشرات وعشرات من الصفحات ـ العصر العباسى الثالث تناول موضوع النحو والنحاة فيه على ضوء ما تطور من دراسته ، مع بيـان ما حدث فيه من تخلف أو توقف أو ابتكار ، وهكذا يمضى فى بقية العصـــور حتى العصر الحديث •

وهكذا يتناول الرجل كل علم ، وكل موضوع فى كل عصر من عصور الأمة العربية ، فيلقى عليه من الأضواء ما يكشف عن حقيقته ونموه أو تخلفه .

ولا يرضى صاحبنا من الحديث عن موضوعات العلوم وفنون الأدب بهذا القدر ، ولكنه يقف عند رجال هذا الموضوع ، أو أعلام هذا الفن ، يترجم لكل واحد منهم ترجمة قد تقصر الى بضعة من السطور وقد تطول الى بضع من الصفحات . فترجمته للامام مسلم صاحب الجامع الصحيح فى حديث الرسول عليه السلام تبلغ ستة أسطر (١) ، وترجمته للمؤرخ الأديب الشاعر صلاح الدين الصفدى صاحب كتاب « الوافى بالوفيات » تبلغ أربع صفحات أو تقاربها (٢) .

ومن المؤرخين والمؤلفين من يكتفى فى تراجمه للرجال بذكر اخبارهم التى ينقلها عن مصادر ومراجع لا يرى ضرورة للاشارة اليها . ولكن جرجى زيدان قد أفاد من المستشرقين فى هذه الناحية ، فهو يذكر فى كل ترجمة المصادر والمراجع التى يمكن الرجوع اليها لمن يريد أن يتوسع فى الموضوع ، أو لمن يريد أن يهتدى الى مآخذه ومصادره . ولقد كان بعض المؤرخين العرب يكتفى بذكر المصادر والمآخذ جملة فى صدر كتابه أو فى مقدمته ،

---

(١) الجزء الثانى من تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٢٤٦ .

(٢) الجزء الثالث من - ص ١٧٤ - ١٧٨ .

كما فعل مؤرخنا المصرى العسقلانى « ابن حجر » فى كتابه « الدرر الكامنة ، فى أعيان المائة الثامنة » المطبوع بحيدر أياد الدكن بالهند سنة ١٣٤٨ هـ سنة ١٩٢٩ م ٠٠ ولكن جرجى زيدان يذكر المآخذ والمصادر عقب كل ترجمة لكل علم ، شاعرا كان ، أم خطيبا ، أم مؤلفا ، أم فقيها ، أم مفسرا ، أم محدثا ، أم لغويا ، أم صحافيا ٠٠٠

ولا يكتفى هنا بالمصــادر العربية ، ولكنه يضيف اليها المصادر الأجنبية ـ أوربية كانت أم أمريكية ٠ ففى ترجمته ـ مثلا ـ للشاعر الجاهلى : « تابط شرا » يذكر مآخذ الترجمة لحياته على هذا النحو قائلا : « وأخباره فى الأغانى ٢٠٩ ج ١٨ ، والشعر والشعراء ١٧٤ ، وخزانة الأدب ٦٦ ج ١ ٠ وكتب عنه بور BAUR بالألمانية مقالة فى سيرة حياته وشعره ، فى المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٥٦ » (١) ٠

ولا تقتصر المصـــادر والمآخذ التى يسجلها جرجى زيدان فى تراجم الأعلام الأدبية على القديمة ، ولكن الرجل كان متابعا لأحدث الكتب فى وقته ٠ ففى ترجمته للمؤرخ بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ يضيف الى مآخذ ترجمته كتاب « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك باشا ٠ وفى ترجمته للشـــاعر الجاهلى : المتلمس ، يضيف الى المصادر القديمة مصدرا معاصرا له وهو كتاب « شــعراء

---

(١) تاريخ اداب اللغة العربية ، جـ ١ ، ص ١٦٢ ٠

النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى المتوفى سنة ١٩٢٧ ٠

وحين يذكر جرجى زيدان كتب المؤلفين والأعلام الذين يترجم لهم ، أو دواوين الشعراء الذين يتناولهم بالدراسة ، لا يكتفى بذكر أسماء تلك الكتب وعناوينها ، ولكنه يشير الى أماكن نسخها الخطية ان كانت مخطوطة ، والى أماكن طبعها وتاريخ الطبع ان كانت مطبوعة ٠ وقد استعان فى ذلك العمل بالجهد الضخم الذى بذله المستشرق الألمانى بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ٠ ولكنه لم يكن فى الأمر كله عالة على بروكلمان ، فقد أفاد من رحلاته وزياراته هو المتعددة الى مكتبات أوربية كثيرة ، كما أفاد من تردده على « دار الكتب المصرية » واستئناسه الدائم بفهارسها ٠ كما أفاد خاصة من مكتبة المرحوم أحمد تيمور باشا ٠

وتعد تعريفات جرجى زيدان بالكتب التى خلفها الفكر العربى الاسلامى على مر العصور حتى عصرنا الحديث الذى ظهر فيه كتابه ـ أدق وأوجز تقويم لهذه الثروة الطائلة من انتاج الثقافة العربية ، والعقلية الاسلامية ٠ فقد يقوم الكتاب أو ديوان الشعر فى سطر أو فى بضعة أسطر ، أو فى صفحة كاملة أو قريب منها ، فيقدم الى القارىء صورة صحيحة دقيقة عن الكتاب الذى يقومه ٠

ولا شك أن هذا التعريف للكتب التى ظهرت فى العربية على مر العصــور يعد مرآة صادقة صافية لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، كما يعد مقياسا دقيقا لهذا التراث الضخم ، وميزانا مضبوطا لمد التيارات الفكرية العربية وجزرها ٠

واذ كان كثير من تلك الكتب التى وصــفها جرجى زيدان حتى وفاته سنة ١٩١٤ قد تغير حاله الى الطبع بعد أن كان مخطوطا ، كما أن كثيرا من تراجم الرجال قــد استحدث فيها دراســات وكتب جديدة منذ وفاة جرجى زيدان حتى يومنا هذا ، واذا كانت موضوعات البحث حتى عصر زيدان قد جد عليها دراسات جديدة لم تكن في عهده ، كما أن كشوفا أدبية ولغوية وتاريخية قد ظهرت فى الميدان منذ لقى جرجى زيدان ربه ، فان طبعة جديدة منقحة مزيدة من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » كانت ضرورية ٠ ولقد نهض بهذا العبء الضخم رجل من علمائنا حمال لمثل هذه الأعباء ، هو الدكتور شوقى ضيف الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة ٠

وظهرت الطبعة الجديدة من « تاريخ آداب اللغــة العربية » بتحقيقات الدكتور شوقى ضيف وتعليقــاته وتصويباته واستدراكاته واضافاته الثمينة سنة ١٩٥٧ ٠ ومن عجائب المقدور أن يقوم الدكتور شوقى ضيف بعد

أربعة وأربعين عاما بتحقيق أمنية الدكتور يعقوب صروف التي تمناهـــا على المؤلف في حياته بتحقيق الكتـــاب وتمحيصه . ولا أحسب الدكتور شوقي ضيف قد بلغ الغاية من هذا ، ولكن مجهوده الضخم المضني يظهر واضحا على كل صفحة من صفحات الطبعة .

ومن مظاهر الروح العلمية في هذه الطبعة الجديدة « لتاريخ آداب اللغة العربية » أن الدكتور شوقي ضيف قد أسقط عنصر المجاملة من حسابه ، مع أن ولدى جرجي زيدان هما اللذان نَدباه للقيام بهذا العمل . فنراه يصحح الخطأ في حرية تامة في التعبير . فقد عد جرجي زيدان الشاعر « عبد الله بن الدمينة » من شعراء الجاهلية . وهنا نجد في الهامش تعليقا من المحقق يقول فيه : « أخطأ المؤلف في عد ابن الدمينة من شعراء الجاهلية ، فهـــو اسلامي » (١) . ولا نمضي في سرد أمثلة من هذه التحقيقات الثمينة ، فهي كثيرة واضحة تشهد بعلم المحقق وســعة اطلاعه وطول مراجعته ومعاودته للمصادر والمراجع . ولكن يظهر أن الدكتور شوقي قد أجاز لنفسه التغيير والتعديل المطلق في مادة الكتـــاب . كما فعل في صــفحة ٢٤ من الجزء الأول ـ مثلا ـ فقد أباح لنفسه أن يصلح قليلا في النص كما يعترف هو نفسه في الهامش . بل جاوز الدكتور

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ـ ج ١ ، ص ١٧٨ .

شوقي ضيف الحد في صفحة ٢٤٦ من هذا الجزء أيضا ، فوضع أسماء أربعة من رجال الحديث المشهورين في العصر الأموى بدلا من أربعــة آخرين مغمورين وضعهم جرجى زيدان في الطبعات السابقة • وكان من الممكن أن يبقى الدكتور شوقي ضيف الأسماء الأربعة التي وضعها زيدان في صلب الكتاب ، وأن يضع في الهامش الأسماء الأربعة التي يراها أولى من غيرها •••

وكما أجاز الدكتور شوقي ضيف لنفسه الزيادة ـ حيث لا تجوز الزيادة ـ في الكتاب ، فأنه أجاز لنفســه الحذف ، والحذف الكثير ، بلا داع يبرره ، ولا ســبب يسوغه • ففي مقدمة جرجي زيدان للجزء الثالث التي يرد بها على منتقديه ، نرى المحقق الفاضل يحذف ما يقرب من أربع صفحات تتناول موقف الرجل من المنتقدين ، كمـا تتناول موضوع انتقاد « تاريخ آداب اللغة العربية » وأسماء ناقديه وايجـاز الرد عليهم • ولا يفوتنا هنا ـ للتاريخ فقط ـ أن نذكر أسماء هؤلاء المنتقدين ، وهم الأب لويس شيخو اليسوعي الذي نشر نقده في مجلة المشرق ، والسيد كاشف الغطاء الشيعي النجفي وقد نشر نقده في مجــلة « العرفان » التي كان يصدرها أحمد عارف الزين في صيدا ، والأب أنستاس ماري الكرملي ، وقد نشر نقده في مجلة « لغة العرب » التي كان يصدرها في بغداد ، وأستاذنا المرحوم الشيخ أحمد الاسكندري الذي نشر نقده في مجلة « المنار » في سنتيها الخامسة عشرة والسادسة عشرة •

ونعود هنا فنؤكد قضية اهتمام جرجي زيدان بالنقد وايمانه بفائدته وعدم ضيق صدره به • ومن مأثوراته في هذا السبيل قوله : « لا جدال في ان الانتقاد أكثر فائدة من التقريظ ، وقد يتبادر الى الأذهان ان انتقاد الكتب يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها ، وهو خلاف الواقع • واذا رأينا له مثل هذا التأثير أحيانا فلأن الكتاب المنتقد لم يكن يستحق عناية المنتقدين • ولو ترك بلا انتقاد لكان أسرع الى السقوط • أما الكتب الهامة فانها تزداد بالانتقاد شـيوعا ورواجا ، ويزداد أصحابها رسـوخا في عالم الشـهرة » (١) •

رابعا : نصوص مختارة :

لعل كلام جرجي زيدان نفسه عن « تاريخ آداب اللغة العربية » وأقسامها يكون أصدق تعبير عن قضية كان الرجل أول من حمل لواءها بشمول واتساع وتفصيل ، فلنسمعه هنا يقول : (واذا نظرنا الى آدب اللغة العربية وأخواتها الساميات ، رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه اجمالي • أما عند التفصيل فاننا نجد بين آداب هذه اللغات وتلك فرقا كالفرق بين طبائع الامتين • فالشعر عند الساميين أقدم آدابهم ، لكن أكثره غنائي ، وليس فيه من الشعر القصصي

---

(١) تاريخ اداب اللغة العربية ـ ج ٣ ، ص ٤ •

الا نتف قليلة . أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب ، وسنرى أنه موجود فيها ... ولا غرو اذا امتازت اللغات الأوربية بالشعر القصصي والتمثيلي ، فان اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية ، ليس منه في لغات الافرنج الا نتف ، نعنى « الأمثال » فأنها جزء مهم من آداب اللغات السامية ، ولا سيما العربية والعبرانية ، وتندر في سواها .

وآداب اللغة العربية التي هي موضوع هذا الكتاب أغنى سائر الآداب السامية ، بل هي على الإجمال أغنى آداب سائر لغات العالم ... لأن الذين وضعوا آدابها في أثناء التمدن الاسلامي أخلاط من أمم شتى جمعهم الاسلام أو الدولة الاسلامية ، وفيهم العربي والفارسي والتركي والهندي والسوري والعراقي والمصري والرومي والارمني والبربري والزنجي والصقلبي وغيرهم ... وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربي ، وألفوا الكتب العربية ، في الأدب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة ، فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحاسن القرائح ، وشتات الأخلاق والآداب والطبائع ، وأدخلوا فيها كثيرا من أساليب ألسنتهم الأصلية بدون قصد أو تعمل .

ونريد بتاريخ آداب اللغة العربية بسط ما تقلبت عليه اللغة وآدابها من أقدم أزمانها الى الآن ... فهي — بهذا الاعتبار — تقسم الى أطوار ، لكل منها شأن يمتاز عن سواه ،

وقد لاحظنا فى تقسيم هذا التاريخ ما توالى على الأمة من الانقلابات السياسية أو الأدبية ، وما كان من تأثير ذلك على المواهب والقرائح .

ويمكن قسمة تاريخ آداب اللغة العربية حسب علومها وآدابها ، أو حسب الأعصر التى توالت عليها . ونريد بقسمتها حسب العلوم أن نستوفى الكلام فى كل علم على حدة من نشأته الى الآن ، على أن نبدأ بأقدمها ، ونتدرج الى أحدثها . فنبدأ بآداب الجاهلية ، فنذكر تاريخ الشعر مثلا وتراجم الشعراء من نشأته ، وما تقلب عليه من الأدوار فى الجاهلية والاسلام الى اليوم . ونفعل مثل ذلك فى الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية ، وبالفقه والتفسير والأدب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الاسلامية . وهكذا نفعل بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها الى الآن .

أما قسمتها حسب العصور ، فيراد بها الكلام عن العلوم كلها معا فى كل عصر على حدة . وهذا الذى اخترناه فى الكتاب ، لأنه يصور حالة العصور المختلفة ، وما يكون من تأثير السياسة وانقلاباتها فى العلم والأدب . ولذلك فقد قسمنا تاريخ آداب اللغة العربية الى قسمين كبيرين ، يفصل بينهما أهم انقلاب أصاب العرب من أول عهد تاريخهم الى الآن .. نعنى ظهور الاسلام . فهى بهذا الاعتبار تقسم الى

آداب اللغة قبل الاسلام وآدابها بعده · وقسمنا آدابها قبل الاسلام الى عصرين : عصر الجاهلية الأولى ، وعصر الجاهلية الثانية ، وقسمنا تاريخها بعد الاسلام الى أعصر أو أطوار ، تناسب انقلاباتها السياسية أو الاجتماعية ، وهي :

١ ـ عصر صدر الاسلام ·

٢ ـ العصر الأموى ·

٣ ـ العصر العباسى ·

٤ ـ العصر المغولى ·

٥ ـ العصر العثمانى ·

٦ ـ العصر الحديث ·

وقسمنا العصر العباسى الى أطوار بحسب التقلبات السياسية كما ستراه فى مكانه (١) ·

وننتقل من هذا النص الى نص آخر يعرف فيه جرجى زيدان الشعر ، فيقول : (الشعر من الفنون الجميلة التي يسميها العرب الآداب الرفيعة ، وهى الحفر والرسم والموسيقى والشعر · ومرجعها الى تصوير جمال الطبيعة · فالحفر يصورها بارزة ، والرسم يصورها مسطحه بالأشكال والخطوط والألوان ، والشعر يصورها بالخيال ، ويعبر عن

---

(١) الجزء الاول ، ص ٢٦ ـ ٢٨ ·

اعجابنا بها وارتياحنا اليها بالألفاظ ، فهو لغة النفس ، أو هو صورة ظاهرة لحقائق غير ظاهرة • والموسيقى كالشعر ... هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعانى ، وهى تعبر عنه بالأنغام والألحان ، وكلاهما فى الأصـــل شىء واحــد •

هذا هو تعريف الشـــعر فى حقيقته ، ولكن علماء العروض يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون ، فيحصرون حدوده بالألفاظ ، وهو تعريف للنظم لا للشعر ... وبينهما فرق كبير ، اذ قد يكون الرجل شاعرا ولا يحسن النظم ، وقد يكون ناظما وليس فى نظمه شعر ... وان كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعا فى النفس ، فالنظم هو القالب الذى يسبك فيه الشعر ، ويجوز سبكه فى النثر •

وقد تقدم ابن خلدون خطوة أخرى فى تعريف الشعر ، فقال : « الشعر هو الكلام المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضـــه ومقصـــده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به » فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضا استقلال كل بيت منها بغرضه ، وهو تقييد لا باعث له ، اذ قد ترى فى الكلام المنثور معانى تؤثر فى نفسك تأثير الشعر ، وذلك كثير فى كلامهم ، والحكم فيه للذوق • ومن أصعب الأمور أن نعرف

الشعر ، ونجعل له حدودا جامعة مانعة ، كما نعرف الصرف أو النحو أو الفلك أو غيرها من العلوم والآداب . ولكنك اذا قرأت قولا فيه خيال شعرى تعرفت الشاعرية فيه ، وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له . وقد يكون ذلك النثر قولا ، وانما أطربك ما فيه من أساليب الكناية أو الاستعارة ... فاذا سبكته فى قالب شعرى زاد رونقا وطلاوة ، فاذا غنيته على توقيع الألحان زدت طربا به . فالوزن يزيد الشعر طلاوة ، من قبيل التوقيع الموسيقى فى الألفاظ والحركات ، لا من قبيل المعنى .

فاذا قرأنا لبعضهم نثرا يصف به ذهوله فى الحب ، فيقول : « اذا جئت دار الحبيب ليلا لحاجة لى ألتمسها ، فلا أدخل الدار حتى أنسى ما جئت له » فهذا معنى شعرى ترتاح اليه النفس ، لكن ارتياحها يكون أكثر اذا نظم ذلك المعنى شعرا ، كقول المجنون :

فيا ليل ! كم من حاجة لى مهمة
اذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا

ويكون وقعه فى النفس أشد اذا غنى عن لحن مطرب .

وعلى ذلك فيدخل فى الشعر كثير من أقوال العرب التى نعدها من قبيل الأمثال أو الحكم المأثورة المبنية على

الكناية ، كقولهم : « المرء بأصغريه لا ببرديه ، وعاد الأمر الى نصابه ، وصاحت عصافير بطنه ، ونحو ذلك » .

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية ... وقد رأينا بعض متقدمى العرب يرون هذا الرأى فى تعريف الشعر ، فقد قال بعضهم : « الشعر كلام وأجوده أشعره » ولم يقيده بالوزن ولا القافية . وقال آخر : « الشعر شىء تجيش به صدورنا ، فنقذفه على ألسنتنا ») .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٨٦١ / ١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 4816 — 4

مكتبة الأسرة



بسعر رمزي خمسون قرشا

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦ 1996